انكلترا والصين

اهم المسائل العمومية في هذه الايام مسألة الحرب الاهلية في الصين وعلاقتها بدول اوربا ولاسيما بانكلترا . وقد يود كثيرون ان يطلعوا على تاريخ العلاقات بين الصين وانكلترا والاولى في اقصى شرق اسيا والثانية في اقصى غرب اوربا فرأينا ان نلخص بعض ما يعرف من هذا القبيل لان فيهِ فائدة تاريخية

جاء في التواريخ الانكليزية ان الملكة اليصابات بعثت سفيراً الى ملك الصين في اواخر القرن السادس عشر (وكان يطلق على ملك الصين لقب المغول العظيم) دلالة على ان الصين لم تكن تأبى دخول الاجانب بلادها ويؤيد ذلك ان ابن بطوطة أُوفد اليها من قِبَل السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) وقد قال في ذلك ما خلاصتهُ « بعث اليَّ السلطان وقال لي انما بعثت اليك لتتوجه عني رسولاً الى ملك الصين . . . وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا وخمسة امتان من المسك ... وخمسة اثواب مرصعة بالجواهر . . وطلب من السلطان ان يأذن لهُ في بناء بيت الاصنام الذي بناحية جبل قراجيل

ثم وصف الصين احسن وصف وقال « انها آمن البلاد واحسنها للمسافر فان الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة اشهر وتكون معهُ الاموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك ان لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً وحاكماً يسكنهُ في جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب او العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعهُ كاتبهُ فكتب اسماء جميع من يبيت فيهِ من المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعهُ كاتبهُ فدعا كل انسان باسمهِ وكتب بها تفسيراً وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني لهُ ويأتيهِ ببراءة من حاكمهِ ان الجميع قد وصلوا اليه واذا لم يفعل طالبهُ بهم وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليهِ المسافر من الازواد وخصوصاً الدجاج والاوز »

وسنة ١٦٣٧ اي بعد نحو ثلاثة قرون ارادت انكلترا ان تفتح لها طريقاً للتجارة مع الصين فارسلت اليها سفناً بقيادة قبطان اسمهُ ودفل تقوبلت باطلاق القنابل من حصون بوغيو فرضة كنتون ولكن مدافع السفن الانكليزية اسكتت مدافع الحصون وتقدم ودفل

بها الى كنتون وشحن منها سكراً وزنجبيلاً . وتوالى ارسال السفن الانكليزية الى الصين تشحن منها البضائع مع ما تلقاهُ من المشاكل واخيراً فتحت كل مدن الصين البحرية للتجارة سنة ١٦٨٥ بامر من الامبراطور فارسلت شركة الهند الشرقية سفينة الى كنتون سنة ١٦٨٩ لتنشئ فيها معملاً و بيتاً للتجارة لكن رجالها كانوا معرضين لكل نوع من الاهانة ودامت الحال على هذا المنوال الى سنة ١٧٩٢ وحينئذٍ بعثت الحكومة الانكليزية لورد مكرتني الى بلاط امبراطور الصين ليصلح العلاقات بين الدولتين و يسعى حتى يكون لانكلترا سفير دائم في بلاد الصين وقيل حينئذٍ ان حكومة الصين قابلتهُ بالحفاوة والاكرام لكن خادم السفير واسمهُ اينيس اندرسن نشر كتاباً فصّل فيهِ المعاملة المهينة التي عومل بها السفير فراجت نسخهُ اي رواج واعيد طبعهُ مراراً عديدة حتى اضطرت الحكومة ان تشتري كل نسخهِ . ومما جاء في هذا الكتاب ان الزورق الذي سار فيهِ السفير في نهر ييهو رفع عليهِ علم كتب فيهِ هذا سفير آتٍ بالجزية من انكلترا . ولما وصل السفير الى بكين أمر ان يسجد للامبراطور حسب العادة المتبعة في الصين فابى واخيراً سمح لهُ ان يقابل الامبراطور كما يقابل سلكهُ . فاحسن الامبراطور مقابلتهُ ولكنهُ لم يعدهُ بشيء او كما قال بعضهم انهُ قوبل مقابلة غاية في اللطف وعومل معاملة غاية في المودة وروقب مراقبة غاية في الدقة وصرف على اسلوب غاية في المجاملة

ثم ارسلت الحكومة الانكليزية لورد امهرست سنة ١٨١٦ سفيراً الى الصين فرفعت الزوارق التي اوصلتهُ الى العاصمة هو ورجالهُ اعلاماً كتب عليها انهُ آتٍ بالجزية من انكلترا ولم يكد يصل الى العاصمة حتى قيل لهُ ان يقابل الامبراطور حالاً فاعتذر بانهُ لم يكن لابساً حلتهُ الرسمية ولا اوراق تعيينهِ معهُ فلم يصغ احد اليهِ بل دفعوهُ الى المثول في حضرة الامبراطور دفعاً لكنهُ اصرَّ على الاباء فقالوا لهُ ارجع اذاً من حيث اتيت فرجع بخفي حنين . وما عوملت به السفارة الانكليزية كان ارحم مما عوملت بهِ سفارات الدول الاخرى ولاسيما سفارة هولندا فان سفيرها سجد للامبراطور كما أمر ولكن ذلك لم يجدهِ نفعاً . بعض السفراء كانوا يساقون الى العاصمة كالجناة و يعاملون كالمتسولين ثم يردون الى كنتون كالمشعوذين وهم يسجدون ثلاثاً ثلاثاً كلما امرهم سائقوهم ان يسجدوا . وكل هذا التذلل لاجل المتاجرة مع الصين والاكتساب منها

اما الصينيون فلم يكونوا يكرهون المعاملة التجارية ولكنهم كانوا يظنون انهم ارقى من غيرهم فيترفعون عن معاملة الاجانب معاملة المثيل للمثيل والاوربيون لم يروا حينئذٍ

ان يلجأوا الى القوة فلما فعلوا كانت انكلترا البادئة فان لورد نبير ذهب الى الصين وحاول ان يجتمع بحاكم كنتون وان يقابلهُ كما يقابل شيل مثيلهُ فابى و بعد جدال طويل في كيفية وضع الكراسي التي يجلس عليها هو والحاكم ورجالهم حتى لا يظهر انهُ احط منزلة من الحاكم اتى بمائدة مستديرة ووضع الكراسي حولها وجلسوا حولها حتى لا يظهر لاحد منهم تقدم على الآخر . ولكنهُ مرض بعد ذلك وتوفي . و بقيت الامور معلقة الى ان حدثت حرب الافيون المشهورة واوقع الاسطول البريطاني بالاسطول الصيني واغرقهُ والحال اضطرت الصين ان تتفاوض مع بريطانيا على قدم المساواة وصلحت حال التجار البريطانيين

لكن المعاملة بالعنف والجبروت تولد الاحقاد كما ان الخنوع يولد الاحتقار . ويقول الذين اقاموا في الصين السنين الطوال من الاوربيين والاميركيين ان اكثر الصينيين اذكياء ودهاء صادقو الوعد تهذبوا بتعاليم فيلسوفهم كنفوشيوس . والذين تعلموا منهم في اوربا يفضلون افضى جهدهم في اصلاح حال بلادهم

وبينما نحن نفكر في هذا الموضوع جاءنا عدد شهر ابريل من مجلة « اسيا » الاميركية وفيهِ مقالة ضافية يقلم جون ماك كوك روتس الكاتب الاميركي عن الحركة الوطنية الصينية فلخصنا منها ما يأتي لما فيها من المعلومات التي رواها شاهد عيان زار الصين في السنة الماضية وحادث بعض زعمائها وقد استهلها بعبارة مقتبسة مما كتبهُ المستر ولز وهي : « لقد ظهرت في العالم الآن امة صينية حية ويخيل اليَّ ان هذه الصين الجديدة ودماغها وجهازها العصبي في الكيومنتنغ (اي حزب الشعب الوطني) ومركزها في كنتون وهذه الحركة اهم حوادث هذا العصر واعظم ما يستحق الالتفات والدرس منها » ثم قال :

هي حركة جارفة امتدت من مقرها الاصلي في كنتون الى ان اصبحت الآن تسيطر على نحو ثلثي الصين وقد بلغت ذرى الشهرة في مدى بضعة اشهر وسترفع الصين عاجلاً او آجلاً الى مقامها اللائق بها بين الامم وهو المقام الذي يستحقهُ الاربع مائة مليون صيني. تلك هي الحركة الوطنية !

وترى الوطنيين اصحاب هذه الحركة يدعون الى المساواة السياسية بالامم الاخرى وان كانوا متعصبين لآرائهم السياسية ولا يقبلون آراء اخرى سواها وهم يشدون الصداقة مع العالم اجمع وان كانوا قد تحالفوا نهائيًّا تحالف العطف مع روسيا السوفياتية الخارجة عن القانون الدولي وهم في الواقع على جانب عظيم من الاستقامة في الشؤون العامة

احد الرماة

جنود صينيون بملابسهم الوطنية القديمة

نتري في الجيش الصيني

نتري في الحرس الامبراطوري

مقتطف مايو ١٩٢٧

امام الصفحة ٥٢٤

في بلاد لم تعرف فيها هذه الفضيلة قبلاً وقد اوتوا ذوقاً سليماً في التنظيم العصري لم يوجد مثلهُ قط في الصين من قبل ويجرون على برنامج معين في عملهم والخلاصة انهم انشأوا حكومة منتظمة في ارض لم تكتحل عينها برؤية الحكومات المنتظمة منذ عشرات من السنين

نعم ان للوطنيين غلطات جمة ولكن هنا على الاقل حماسة واخلاص وتقدم وشباب تامض وهنا تجتمع آمال اكثرية كبرى من عامة الشعب وهنا في الاراضي التي يحكمها الوطنيون يجب ان ننتظر لنرى بارقة الامل في العناصر المعمرة للصين الحديثة

ومن الاشكال الشائعة في الشرق الاقصى قولهم « ان ما تفكر فيهِ كنتون اليوم تفكر فيهِ الصين باجمعها غداً » وقد مضت مئات السنين وهؤلاء القوم الذين يقيمون في الطرف الجنوبي الاقصى من الامبراطورية يعيشون عيشة تختلف عن عيشة جيرانهم الشماليين ولم يؤثروا قط الى حمل النير الامبراطوري وعلاوة على ذلك ان مركزهم الجغرافي مكنهم من الاتصال بالتجار الغربيين والافكار الغربية قبلما عرفت الصين الحقيقية شيئاً عن « الاجنبي »

اما صن يات سن « ابو الوطنية الصينية » فقد كان بيتهُ في وسط حقول الارز المجاورة لكنتون من الجنوب ولتشبعهِ بافكار الدمقراطية الغربية كان يعتقد انهُ من المستطاع بث المبادئ العصرية في الصين بتغيير اسمها من « ملكية » الى « جمهورية » ولم يغير رأيهُ الاَّ بعد ما عجزت ثورة سنة ١٩١١ الاَّ عن نشر الرشوة والارهاب العسكري

وقد اثر الخبراء الروس بنفوذهم في خطتهِ الجديدة حين دعوا لتحسين شأن الآلة السياسية وهي الكيومنتنغ « حزب الشعب الوطني » ولتأسيس حكومات من هذا الحزب في مناطق معينة ومد سلطتهِ شيئاً فشيئاً من اقليم الى اقليم الى ان تعم الصين برمتها . وقد كانت كنتون خير قاعدة لاعمالهِ وفيها اسس صن يات سن حكومة مستقلة في سنة ١٩١٧ . ثم مضت ست سنوات صادف فيها كثيراً من المشاق والمتاعب في داخل الحزب حدثت حوادث شقاق وخلاف وفي خارجهِ حوادث خيانة وكثيراً ما اضطر الى الهرب خوفاً على حياتهِ وحتى وفاتهِ في ١٢ مارس سنة ١٩٢٥ لم يكن الحزب قد نجح بعد في ضم الاقليم واحد كامل الى سلطتهِ

على ان موت صن يات سن انقذ الحركة فالذين كانوا يعارضونهُ في حياتهِ اخذوا يمجدونهُ الآن بعد مماتهِ وقد اصبح اسمهُ شعاراً وطنيًّا « وارادتهُ » وثيقة مقدسة وبات

الولاء للحزب الذي اسسهُ كالولاء للوطن سواء بسواء فاعترف الجميع بان حزب الشعب الوطني هو اداة الثورة

ولقد زرت كنترن في يوليو من السنة الماضية اي بعد ما قبض حزب الشعب الوطني على زمام السلطة باثني عشر شهراً وقبل ما شرع الوطنيون في الزحف شمالاً ولا يسع المرء الذي يزور شوارعها مزدحمة لاول وهلة الاَّ ان يشعر بانها مدينة متقدمة في الحضارة واهم ما يميزها عن المدن الصينية الاخرى انها مدينة صينية بحتة

وليس في كنترن الاَّ رأي سياسي واحد وهو ان الحزب الوطني هو وارث مبادئ صن يات سن وان طاعة حزب آخر امر لا يستطاع تصورهُ وانها في مثل هذا المركز الثوري امر لا يغتفر بطبيعة الحال

ولا يقبل في حزب الشعب الوطني (الكيومنتنغ) سوى الذين يعتنقون المبادئ الشعبية الثلاثة التي وضعها صن يات صن وهي الوطنية والديمقراطية ومصلحة الجمهور ويشترط في الطالب ان يكون عارفاً بالقراءة والكتابة وان يزكيه خمسة من اعضاء الحزب المعروفين وان يمضي مدة التجربة على ما يرام. ويبلغ عدد اعضاء الحزب حسب آخر احصاء ٢٥٠٠٠٠ في كنترن وحدها غير الفروع التي لهُ في جميع انحاء البلاد لان صن يات سن أدرك انهُ من العبث اعطاء حق الاقتراع للاميين من الزراع والعمال الجهلاء وفي الوقت عينه لم يرد ان يظلوا جهلاء وكان من رأيه ان تكون الحكومة بمثابة « جمعية منظمة » للا تكون ملكية بحصر اللفظ ولا دكتاتورية ولا جمهورية برلمانية على نمط جمهوري بتي اميركا وفرنسا بل تكون حالة وسطى بينها وهي حالة « الوصاية » وكان يرى ان تتدرج الحكومة في ثلاث مراحل : العسكرية . فالوصاية . فالدستورية . وعندهُ ان السلطة يجب ان يتقلدها الاكفاء الذين يضطلعون بها وفي الوقت عينه يرى الافراد الذين ليسوا اعضاء في الحزب في مدارس عامة على مبدإ سياسي حتى يصلوا يوماً ما الى هذه المنزلة من الكفاءة

وقبلما مثل ما تقدم للطبع وردت الاخبار البرقية من الصين مشيرة الى فوز الشمال على الجنوب اي على حزب الشعب الوطني ومعلوم ان الروس الحمر اي السوفيت اعداء انكلترا هم الذين يساعدون اهل الجنوب لمقاومة انكلترا وان الروس البيض اي اعداء السوفيت يساعدون اهل الشمال وقد انتظموا في جيوشهم

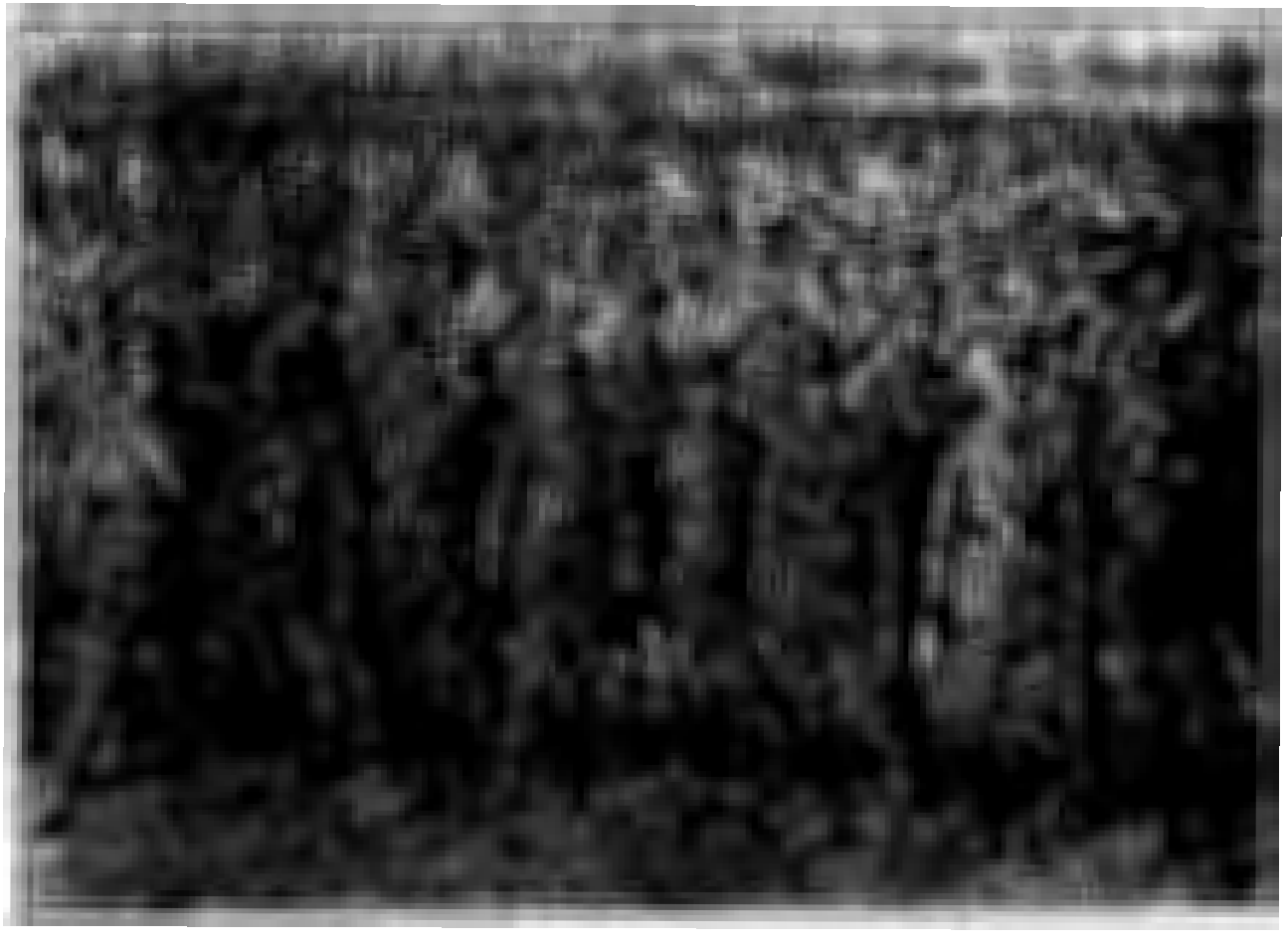

فريق من الجنود الصينية في الحرب الاهلية الاخيرة وهم بملابس الجنود الحديثة

منتطف مايو ١٩٢٧